الباب الأول

في نفع الأئمة، وفضل من عدل في الرعية

قال الله تعالى في محكم كتابه، ومُبرَم خطابه: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠ ﴾[1].

وقال النبي ﷺ: «يومٌ واحدٌ مِن إمامٍ عادل، أفضلُ من عبادة رجل واحد سبعين سنة».

وقال أميرُ المؤمنين عليُّ بن أبي طالب كرم الله وجهه: «يكفيك من إمارةِ البرِّ والفاجرِ، العدلُ في الحكم، والقَسْمُ بالسوية، وإقامةُ الحدودِ للقريب والبعيد».

وقال كعب الأحبار: «مثل الإسلام والسلطان في الناس مثل الفسطاط والعمود والأطناب والأوتاد لا يصلح بعضه إلا ببعض».

وقال مطرّف بن الشِّخّير: «إني لأظن أنّ لو رُفِعَ هذا السلطانُ من الأرض أنّ ليس لله في خلقهِ حاجةً».

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: «لولا هارون[2] أمير المؤمنين ماطفتم بهذا البيت، ولَسَلَبَكم الأعراب»، قال: «وسمعَ رسول الله ﷺ رجلاً

(1) النحل: الآية (90).

(2) يعني: هارون الرشيد، رحمه الله تعالى، ورحم مُوَحِّد المملكة العربية السعودية الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود.

يقول: بئس الشيء الإمارةُ، فقال رسول الله ﷺ: نِعْمَ الشيءُ الإمارةُ لمن أَخَذَ بحقِّها، وأدَّى حقَّها».

وقال الحسن ﷺ: «لولا الشيطانُ لما هَلَكَ بنو آدم، ولولا العلماء لصارَ الناسُ مثلَ البهائم، ولولا الصالحون لهلك الطالحون، ولولا السلطان لأكل الناس بعضهم بعضاً».

وقالَ وهبُ بنُ مُنَبِّهٍ: «إذا همَّ السلطانُ بالعدلِ، أو عملَ به أَدخَلَ الله البركةَ على أهلِ مملكته، حتى في الأسواقِ والأرزاقِ والزروعِ والضروعِ، وعلى كلِّ شيءٍ، وإذا هَمَّ بالجَوْرِ أو عَمِلَ به أدخلَ الله النقصَ في أهلِ مملكته، حتى في الأسواقِ والأرزاقِ والزروعِ والضروعِ، وعلى كلِّ شيءٍ».

قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: «قامتِ الدنيا بعالمٍ يشتغلُ بعلمه، وبغنيٍّ لا يبخل بماله عن حقّ الله، وبفقيرٍ صابر، لا يبيع آخرته بدنياه، وبجاهلٍ لا يستكبر عن التعلم، وبسلطانٍ عادلٍ، يحكم بين رعيته بالعدلِ، فإذا كتمَ العالمُ علمَه، وبَخِلَ الغنيُّ، وجَزِعَ الفقيرُ، ولم يتعلمِ الجاهلُ، ولم يعدِلِ السلطانُ، فعند ذلك يَعرِفُ العارفون: أنّ الدارَ قد رجَعَتْ إلى بَدْئِها، فلا تَغْتَرَّنَّ بكثرة المساجد، وجماعةِ الأقوام، فإن أجسادهمَ مُؤْتَلِفَةٌ وقلوبَهم مختلفةٌ» فقيل: يا أمير المؤمنين، فكيف سيرةُ المؤمنِ يومئذٍ؟ فقال: «يُخالِطُهم في الظاهِرِ، ويُخالفهم في الباطِنِ».

وقال أبو حازم لسليمان بن عبد الملك: «يا أمير المؤمنين، إن السلطان سُوقٌ، فما نَفَقَ عنده أُتِي به».

وقالَ رسول الله ﷺ: «إنَّ اللَّهَ ليؤيدُ هذا الدينَ بأقوامٍ لا خَلاقَ لهم».

وقال ابن المقفع: «مَثَلُ السلطانِ كمثلِ المطر، فيه الرعدُ والبرقُ والسيل، وفيه منافعُ للحرثِ والدوابِّ والشربِ، وسائر المنافع، وكالليلِ فيه الظلمة والأهاويل[1]، وفيه الستر والسكونُ، وكالشتاء فيه البردُ والثلجُ، وفيه السكونُ من الهوامِّ والضواري، وكالصيف فيه ما يضرُّ وما ينفعُ».

وقال داود عليه السلام فيما ناجى ربَّه: «أخبرني بأحِبَّائك من خلقك أُحِبّهم فيك» فأوحى الله تعالى إليه: «يا داود، سلطانٌ يرحمُ الناسَ، ويحكمُ لهم كما يحكم لنفسه».

وقال عمرو بن العاص لابنه: «يابني، إمامٌ عادلٌ خير من مطرٍ وابلٍ، وأسدٌ حَطومٌ[2]، خير من سلطانٍ ظلوم، وسلطانٌ ظلومٌ خيرٌ من فتنةٍ تدوم، ولأن تُمازَح وأنت مجنون خير من أن تمازِح مجنوناً، وزلة الرِّجْلِ عَظْمٌ يُجْبَرَ، وزلة اللسان لا تبقي ولا تذر، واستراح من لا عقل له».

وقال بعض الحكماء: «من كتم للسلطان نُصْحَهُ، وللأطباء مرضَه، وللإخوان مشورَته، فقد خان نفسَه، وشَمِتَ به عدوُّه، والندامة تلحقه».

وقال الثعلبي: «النفعُ ثلاثةُ أحرفٍ، ولكلِّ حرفٍ معنى، أولُه: ناظرٌ في أمورِ الرعية، الدقيقِ منها والجليلِ، وفاعلُ الخيرِ عليها في الضراءِ والسراءِ، وعطوفٌ فيها شاهدُها وغائبُها»، وسنختِمُ كلَّ بابٍ من هذه الأبوابِ بحكايةٍ لائقةٍ.

الحكاية

حكي: أنّ (أنوشروانَ) أظهرَ يوماً من أيامِ ملِكه أنه مريضٌ، وأنفَذَ ثقاتَه أن يطوفوا في أقطارِ مملكتهِ، وأكنافِ ولايتهِ، ويطلبوا لَبِنةً عتيقةً في

(1) الأهاويل: جمع هول، وهو الخوف والفزع، أي: فيها المخاوف والأهوال والشدائد.
(2) حطوم: ضارٍ يحطم فريسته.

قريةٍ خربةٍ، ليتداوى بها، فطافوا جميع ولاياتهِ، ثم عادوا فقالوا: ما وجدنا في جميع المملكة مكاناً خَرِباً، ولا لبنةً عتيقةً، ففرح أنوشروان، وشكر إلهَهُ، وقال: إنما أردتُ بهذا أن أُجرِّبَ ولايتي، وأختبر إيالتي، لأعلم هل بقي في المملكة موضعُ خرابٍ لأعمره!؟ فالآنَ لم يبقَ مكانٌ إلا هو عامرٌ، فقد تمَّت أمورُ المملكة، وانتظمتِ الأحوال، ووصلتِ العِمارةُ إلى درجةِ الكمالِ».

obeikandl.com